بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين، به سبحانه نستهدي، وإيَّاه نستكفي، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم، وهو المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وبعد:

ففي هذه الأيَّام المباركة يحلُّ علينا ضيف عظيم وشهر كريم، يهلُّ علينا هلاله، وهو شهر الصِّيام والقيام وتلاوة القرآن، أوجب الله تعالى صيامه، وشرع لنا نبيُّنا ﷺ عند رؤية هلاله وهلال كلِّ الشُّهور أن نذكر الله بذكر فيه بيان عظمة الربِّ الَّذي سخَّر لنا هذه الأهلَّة ومنازلها لنعرف أوقات زماننا فنعرف وقت حجِّنا وصيامنا وانقضاء شهورنا، وقد قال الله تعالى في بيان فوائد الأهلة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: 189].

أي يسألونك يا محمَّد عن الأهلَّة ومحاقها وتمامها واستوائها، وتغير أحوالها بزيادة ونُقصان واستسرارها، وما المعنى الَّذي خَالف بينه وبين الشَّمس الَّتي هي دائمة أبدًا على حال واحدة لا تتغيَّر بزيادة ولا نقصان؟ فقلْ يا محمَّد: خالف بين ذلك ربُّكم لتصييره الأهلَّة الَّتي سألتم عن أمرها مواقيتَ لكم ولغيركم من بني آدم في معايشهم، ترقبون بزيادتها ونقصانها ومحاقها واستسرارها وإهلالكم إيَّاها، أوقات حَلّ ديونكم، وانقضاء مدَّة إجارة من استأجرتموه، وتصرُّم عدَّة نسائكم، ووقت صومكم وإفطاركم وحجِّكم، فجعلها مواقيت للنَّاس.

فالقمر والهلال الَّذي جعله الله ميقاتًا للنَّاس من أعظم الأدلَّة الَّتي دلَّت على عظمة هذا الخالق سبحانه وكمال قدرته ، يقول ابن القيِّم رحمه الله: «وانظر إلى القمر وعجائب آياته، كيف يُبديه الله كالخيط الدَّقيق، ثمَّ يتزايد نورُه ويتكامل شيئًا فشيئًا كلَّ ليلة حتَّى ينتهي إلى إبداره وكماله وتمامه، ثمَّ يأخذ في النُّقصان حتَّى يعود على حالته الأولى؛ ليظهر من ذلك مواقيتُ العباد في معاشهم وعباداتهم ومناسكهم، فتميَّزت به الأشهر والسُّنون، وقام به حسابُ العالم مع ما في ذلك من الحكَم والآيات والعبر الَّتي لا يُحصيها إلَّا الله» اهـ.

وقد عدَّ الله في القرآن الكريم هذا ضمن آياته العظام وبراهينه الجسام، يقول الله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

وقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾، أي: يَنْزِلُها، كلَّ ليلة ينْزل منها واحدة، إلى أن يصغر جدًّا فيكون كالعرجون القديم، أي: كعذقة النَّخل إذا قدم وجفَّ وصغر حجمه وانحنى، ثمَّ يُهلُّ في أوَّل الشَّهر ويبدأ يزيد شيئًا فشيئًا حتَّى يتمَّ نورُه ويتَّسق ضياؤه، فما أعظمها من آية، وما أوضحها من دلالة على عظمة الخالق، وعظمة أوصافه سبحانه، ولا ريب أنَّ التَّأمل في هذه الآية وغيرها ممَّا دعا الله عباده في كتابه إلى التَّفكر فيها وتأمُّلها يهدي العبدَ إلى العلم بالربِّ سبحانه بوحدانيَّته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وسعة علمه وكمال حكمته، وتعدُّد برِّه وإحسانه، ومن ثمَّ يُخلص الدِّينَ له ويُفردُه وحده بالذُّلِّ والخضوع والحبِّ والإنابة والخوف والرَّجاء، فهي دلائلُ ظاهرة وبراهينُ واضحة على تفرُّد الله بالرُّبوبية والألوهيَّة والعظمة والكبرياء.

وأمَّا الذِّكر الَّذي حثَّ عليه نبيُّنا ﷺ أن نقوله عند رؤية هلال رمضان وغيره من الشُّهور هو ما أخرجه التِّرمذي عن طلحة رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذا رَأَى الهِلَالَ قَالَ: اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَيْنَا بِاليُمْنِ وَالإِيمَانِ، وَالسَّلَامَةِ وَالإِسْلَامِ، رَبِي وَرَبُّكَ اللهُ».

فقوله: «إذا رأى الهلال» الهلال هو طلعة القمر لليلتين أو لثلاث، وفي غير ذلك يُقال له قمر.

وقوله: «أهلَّه علين» أي أطلعه علينا، وأرنا إيَّاه.

وقوله: «باليُمن والإيمان»، واليمن هو السَّعادة، وفي رواية أخرى (بالأمن) والأمن هو الطُّمأنينة والرَّاحة والسُّكون والسَّلامة من الآفات والشُّرور.

والإيمان هو الإقرار والتَّصديق والخضوع لله، وهو الإيمان بالله وكتبه وملائكته ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرِّه.

وقوله: «والسَّلامة والإسلام» السَّلامة هي الوقاية والنَّجاة من الآفات والمصائب، والإسلام هو الاستسلام لله والانقياد لشرعه.

وجاء تفسير الإسلام في حديث جبريل الطَّويل الَّذي رواه مسلم في «صحيحه» من حديث عمر، قال: «والإسلام أن تشهدَ أن لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، وتقيم الصَّلاة، وتؤتي الزَّكاة، وتصوم رمضان، وتحجَّ البيتَ إن استطعت إليه سبيلاً».

ثمَّ قال في آخر الحديث: أي حديث رؤية الهلال: «ربِّي وربُّك الله» ففيه بيان أنَّ الكلَّ مربوب مخلوق لهذا الربِّ العظيم، الَّذي لا يستحقُّ العبادة والإنابة والخضوع إلَّا هو سبحانه، لا أكبر المخلوقات كالسَّموات والأرض والشَّمس والقمر، ولا أحقرها وأصغرها كالإنسان الَّذي لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا فكيف يملكه لغيره من بني جنسه، وفي هذا ردٌّ على مَن عبد أحدًا من المخلوقات من دون الله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت].

ثمَّ إنَّ الحديثَ فيه فوائد كثيرة أشير إلى شيء منها، فمنها أنَّ فيه بيانًا للفرق بين الإيمان والإسلام وأنَّهما ليسا شيئًا واحدًا عندما يجتمعان في الذِّكر، بل لكلِّ واحد منهما معنى خاص، فالإيمان يُراد به الاعتقادات الباطنة، والإسلام يُراد به الأعمال الظَّاهرة، أمَّا عند إفراد كلِّ واحد منهما بالذِّكر فإنَّه يكون متناولًا لمعنى الآخر.

وفيه أنَّ الأمنَ مرتبطٌ بالإيمان، والسَّلامةَ مرتبطةٌ بالإسلام، فالإيمان طريق الأمن والأمان، والإسلام طريق السَّلامة، ومن رام الأمن والسَّلامة بغيرهما ضلَّ، والله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام]، وما نراه اليوم ونلمسه من انعدام الأمن في كثير من بلدان المسلمين فضلًا عن بلاد الكفرة والملحدين سببه البعد عن الله وعن دينه الَّذي فرضه على عباده، وأوجب عليهم اتِّباعه والعمل به وتحكيمه في أنفسهم قبل كلِّ شيء، ثمَّ فيمن جعلهم الله تحت ولايتهم، فلا بدَّ من صدق الرُّجوع إلى الله حتَّى يرفع ما حلَّ بالمسلمين من بلاء ومحن

ومصائب وإحن، قال ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تدعى الأكلة إلى قصعتها» ، فقال قائل : ومن قلّة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير ولكنّكم غثاء كغثاء السَّيل ولينزعنَّ الله من صدور عدوّكم المهابة منكم وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله! و ما الوهن؟ قال: «حبُّ الدُّنيا و كراهيَّة الموت».

فهذا سبب من أسباب المحن الَّتي حلَّت بالأمَّة الإسلاميَّة، حبُّ الدُّنيا وكراهيَّة الموت، وحبُّ الدُّنيا يجرُّ إلى ارتكاب المحرَّمات وتحليلها، وترك الواجبات والتَّنفير منها، وفي حديث آخر قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزَّرع وتركتم الجهاد سلَّط الله عليكم ذلًّا لاينزعه حتَّى ترجعوا إلى دينكم».

فترك المأمور واجتناب المحظور يؤدِّي إلى تسليط الكافر وتسليط الذُّلِّ والمهانة والانتكاس، والدَّواء هو الرُّجوع إلى الله والفرار إليه، ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾ [سُورَةُ الذَّارِيَاتِ]، ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [سُورَةُ النُّورِ].

ومن فوائد الحديث أنَّ فيه لفتةً كريمةً إلى أنَّ أهمَّ ما تُشغل به الشُّهور وتُمضى فيه الأوقات هو الإيمانُ بالله وبما أمر عباده بالإيمان به، والاستسلامُ له سبحانه في كلِّ أحكامه وجميع أوامره.

قال ابن القيِّم :: «السَّنَةُ شجرة، والشُّهورُ فروعها، والأيَّامُ أغصانها، والسَّاعات أوراقها، والأنفاس ثمرها، فمن كانت أنفاسه في طاعة فثمرة شجرته طيِّبة، ومن كانت في معصية فثمرته حنظل، وإنَّما يكون الجَذَاذ يوم المعاد، فعند الجَذاذ يتبيَّن حلوُ الثِّمار من مُرِّها» اهـ.

وأعظم الشُّهور مرورًا على الإنسان هو شهر رمضان المبارك، شهر النَّفحات والخيرات وإقالة العثرات، يستوجب من العبد القيام بحقِّه من صيام وقيام وقراءة القرآن، وبرٍّ وإحسان وصدقة على الفقراء والمحتاجين، الَّذين هم في أشدِّ الحاجة إلى من يعينهم على صيام الشَّهر حتَّى لا يشغلهم طلب الرِّزق والسَّعي وراءهم عن عبادة

ربِّهم في هذا الشَّهر الكريم، والعبد مطالبٌ بأن يكون في هذا الشَّهر العظيم من المحسنين الكرماء، اقتداءً بخير الخلق ـ عليه أفضل الصَّلاة وأزكى التَّسليم ـ، فقد كان أجود النَّاس على الإطلاق، وكان أجود ما يكون في رمضان، روى الإمام البخاري في «صحيحه» عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ أجود النَّاس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كلِّ ليلة من رمضان فيدارسُه القرآن، فَلَرسول الله ﷺ أجود بالخير من الرِّيح المرسلة».

ففي الحديث بيان أنَّ سبب جوده وكرمه ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ناتج عن كثرة مدارسة القرآن؛ وذلك أنَّ القرآنَ خلقُه ﷺ كما قالت عائشة رضي الله عنها ، يأتمر بأوامره، ويجتنب نواهيه. فمدارسته له تجدِّد له العهد بمزيد غنى النَّفس، فإذا حصلت في رمضان وهو موسم الخيرات وفيه أنزل الله القرآن، والنَّازل به جبريل، فهذا كلُّه من دواعي زيادة جوده وكرمه ﷺ، فمَن رام زيادة جوده في هذا الشَّهر فعليه بكثرة ذكر الله تعالى وتلاوة كلامه وتدبُّره، والعمل بما أمر به وترك زواجره، يوفِّقه ربُّه للخيرات، ويفتح عليه من البركات.

ورحم الله الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي إذ يقول: «إنَّ رمضان يحرِّك النُّفوس إلى الخير، ويُسكنها عن الشَّرِّ، فتكون أجود بالخير من الرِّيح المرسلة، وأبعد عن الشَّرِّ من الطُّفولة البلهاء، ويطلقها من أسْر العادات، ويُحرِّرها من رقِّ الشَّهوات، ويجتثُّ منها فساد الطِّباع ورعونة الغرائز، ويطوف عليها في أيَّامه بمحكمات الصَّبر ومثبَّتات العزيمة، وفي لياليه بأسباب الاتِّصال بالله والقُرب منه».

نسأل الله الكريم ربَّ العرش العظيم التَّوفيق لمرضاته، واغتنام أوقات الخير بالذِّكر والتَّوبة والإنابة والاستغفار، وأن يتقبَّل منَّا شهر الصِّيام والقيام، وأن يرفع ما حلَّ بهذه الأمَّة من هموم وغموم، وبلاء ومحن، إنَّه سميع مجيب، والحمد لله ربِّ العالمين.

□□□

سلسلة مطويات الفضيلة (27)

رمضان

شهر القيام و الصيام و تلاوة القرآن

د. رضا بوشامة
أستاذ الحديث في كلية العلوم الإسلامية
جامعة الجزائر

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع